Le Caire - 6—2— 1950

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

1ème année-no 866

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد ٨٦٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٦٩ — ٦ فبراير سنة ١٩٥٠ — السنة الثامنة عشرة »

على محمود طه

شاعر الارواء النفسى

للأستاذ أنور المعداوى

— ٨ —

« وفى قصيدة تدور حوادثها حول الفن بين الرجل والمرأة وأثر الغريزة فيه ، يتكلم شاعر فنان اتخذ فتاة حسناء نموذجا حيا لفنه ، فأغوته بمفاتن جسدها ، ودفعته بحماسة فى غمار الذات لا يلبث أن يغيق منها ، وقد رأى مدى انهيار روحه وفنه ، والموقف كله شذوذ واضطراب ، وكله عنف وضعف ، وهو تصوير لهذه الحية الخالدة التى يشتهيها الفنانون والشعراء رغم لدغاتها ... »

بهذه الكلمة التحليلية الموجزة يمهد الشاعر لهذه القصيدة الجديدة ، وهى إحدى القصائد الرائعة فى ملحمة « الأرواح والأشباح » ... ومن الصفحة الثامنة والأربعين من هذه الملحمة التى تنيف على أربعمائة بيت من الشعر ، نقدم الصورة الحسية الثانية ، هناك حيث تفتح « تايس » كتابا وتقرأ من قصيدة الحية الخالدة » :

ولفت ذراعين كالحيتين ... على ، وبى نشوة لم تطر
وقد قربت فمها من فمى ... كشفتين من قبس مستعر
أشم بأنفاسها رغبة ... ويهتف بى جفنها المنكسر
تبينت فى صدرها مصرعى ... وآخرة العاشق المنتحر !!
أفى حلم أنا ؟ أم يقظة ؟ ... ومن أنت أيتها الخاطئة ؟
هوالحب ؟ لا . بل نداء الحياة ... تلبيه أجسادنا الظامئة
يخف دمى لصداه الحبيب ... وتدفعنى القدرة الهازئة
كأنى بهجر بعيد الفرار ... طوى أفقه وزوى شاطئة
أرى ، ما أرى ؟ جسدا عاريا ... تضج به الشهوة الجائعة
أرى ، ما أرى ؟ حدق ساحر ... تؤجان بالنظرة الرائعة
أرى ، ما أرى ؟ شفتى غادة ... ترفان بالقبلة الخادعة
تساقطنى ثمرا ! ما أرى ! ... أرى حية الجنة الضائعة!
بعينك أنت ، فلا تنكرى ... صفات أنوثتك الشاهدة
تمثلت شتى جسوم ، وكم ... تجددت فى صور بائدة
نعم أنتهن ... نعم ما أرى ؟ ... أرى الكل فى امرأة واحده
لقد فنيت فيك أرواحهن ... وها أنت أيتها الخالدة !
لقد كنت وحى رخام يصاغ ... فأصبحت لحما يثير الدماء
وكنت فتى ساذجا لا أرى ... سوى دمية صورت من نقاء
أنيل الثرى قدمى طاير ... يعيش بأحلامه فى السماء
فأصبحت شيئا ككل الرجال ... وأصبحت شيئا ككل النساء !
وكنت أميرة هذى الدمى ... وصورة حسن عزيز المثال

وكنت نموذج فن الجمال أحبك للفن لا للجمال
أرى فيك مالا تحد النهى كأنك معنى وراء الخيال
فجردتنى رجلا أشتهى وجردت أنثى تشهى الرجال !
دعينى حواء أو فابعدى دعينى إلى غايتى أنطلق
أخمر ونار ؟ لقد ضاق بى كيانى وأوشك أن أختنق
أرى ما أرى ؟ لهبا ؟ بل أثم رائحة الجسد المحترق !
فيالك أفعى تشهيتها ويالى من أفعوان نزق !

أتعرف ملكة « المزاج الفنى » ؟ . . . إذا استطعت أن تتخيل القصيدة الشعرية بأدائها النفسى جسما من الأجسام ، وإذا استطعت أن تفترض كل ملكة من الملكات السابقة عضوا عاملا فى حركة هذا الجسم ، وإذا استطعت أن تتمثل الحيز الذى يشغله هذا الجسم من الوجدان المتذوق مكونا من تلك المجموعة من الأعضاء ؛ إذا استطعت أن تتخيل وأن تفترض وأن تتمثل هذا كله ، فإن ملكة المزاج الفنى هى الثوب الذى يلتف حول هذا الجسم بمجموعة أعضائه ليبرز تقاطيعه للعيون ويكشف عن مفاتنه ! إنه أشبه بالثوب الذى ترتديه أى حسناء . . . قد يكون جسمها نموذجا خاصا لجمال كل عضو من أعضائه على حدة ، وقد يكون جسمها نموذجا عاما لتناسق تلك الأعضاء مجتمعة ، ولكن الثوب هو الحكم الأخير الفاصل بين أجساد الحسان ، لأنه هو وحده الذى يطلعنا على مدى التفاوت الجمالى بين جسد وجسد ! هناك ثوب يوحى إليك أن صانعه غير « فنان » ، لأنه لم يراع النسب الفنية بينه وبين جسم صاحبته : من ناحية الطول والقصر ، ومن ناحية الضيق والسعة ، ومن ناحية الكماليات التى تلتمس مظاهر الزينة وتوائم بين لون الثوب ولون البشرة . . مثل هذا الثوب لاشك أنه يظلم الجسد الجميل لأنه يقدمه للعيون على غير حقيقته ، على تلك الحقيقة الأخرى التى اقتضاها ذوق صانع غير فنان . ماذا ينقص هذا الصانع من « ملكات الفن » ليصنع « ملكات الجمال » ؟ تنقصه ملكة المزاج الفنى ، ملكة تفصيل « الأثواب الكاشفة » عن مفاتن الأجساد ! .

المزاج الفنى إذن هو المسئول ، بل هو واضع الحدود والفروق بين طابع كاتب وكاتب وبين طابع شاعر وشاعر . . . خذ مثلا طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم — ككتاب فى مجال القصة وحدها لا فى مجال آخر — فستجد أن طه فى « شجرة البؤس » و « دعاء الكروان » يمثل الطابع الأدبى فهو قصاص أديب ، وستجد أن العقاد فى « سارة » يمثل الطابع الفكرى فهو قصاص مفكر ، وستجد أن توفيق يمثل الطابع الفنى فى عدد من قصصه فهو قصاص فنان . وخذ العقاد مرة أخرى وعزيز أباظه وعلى طه — كشعراء — فستجد أن الأول يمثل المزاج الفكرى فهو شاعر مفكر ، وأن الثانى يمثل المزاج الأدبى فهو شاعر أديب ، وأن الثالث يمثل المزاج الفنى فهو شاعر فنان . هذا التقسيم واضح كل الوضوح فى الأدب المصرى الحديث كما هو واضح كل الوضوح فى الأدب الفرنسى الحديث ، وبخاصة فى فن القصة — أندريه جيد وفرانسوا مورياك كلاهما نموذج لهذا القصاص الأديب ، وجان بول سارتر وبول كلودل كلاهما نموذج لهذا القصاص المفكر ، وجان كوكتو وجان إنوى كلاهما نموذج لهذا القصاص الفنان !

ولا داعى بعد ذلك لأن نخوض فى التفسير والتحليل ، وفى التمثيل والتطبيق ، خشية أن نخرج عن موضوعنا الرئيسى وهو دراسة هذا الشاعر المصرى ذى المزاج الفنى النادر . . . حسبنا أن نقول لك إن على طه ليس شاعرا من أولئك الذين يصوغون الحياة أفكارا « منظومة » عارية من وشائج اللحم والدم ، وليس شاعرا من أولئك الذين ينقلون الحياة نقلا « فوتوغرافيا » خاليا من عناصر الإبداع والفن ، ولكنه من أولئك الذين يتفردون بالذاتية والأصالة عند تصوير الحياة فى لحظات التوهج والتوثب والانطلاق !

إن الشعر دفقة وانتفاضة . . . دفقة يتلقاها الشعراء جميعا ، ولكن فيهم من يتلقاها بانتفاضة الذهن وحده ، وفيهم من يتلقاها بانتفاضة الحس وحده وفيهم من يتلقاها بانتفاضة الذهن والحس والشعور فى وقت واحد . ونفرق نحن بين هذه الألوان من الانتفاضات فى محاولة فنية نهدف من ورائها إلى استشفاف « الحقيقة الشعرية » من خلال « أثوابها الكاشفة » وننتهى إلى أن حقيقة الشاعر الأول صاحب الانتفاضة الأولى هى « وجهة نظر » فكرية ، وإلى أن حقيقة الشاعر الثانى صاحب الانتفاضة الثانية هى « وجهة نظر » أدبية ، وإلى أن حقيقة الشاعر الثالث صاحب الانتفاضات الثالثة

هى « وجهة نظر » فنية . . وهكذا تجد مزاج الشاعر المفكر ، ومزاج الشاعر الأديب ، ومزاج الشاعر الفنان !

وقبل أن نستعرض فنون هذا المزاج الفنى فى قصيدة « الحية الخالدة »، قبل هذا أن نود أن ترجع إلى العدد (٨٠٣) من الرسالة الصادر فى ٢٢ نوفمبر ١٩٤٨ ، حيث وردت فى مقالنا « دفاع عن الأدب » هذه الفقرات : « يقول كرونشه : إن الفنان لا يمكن أن يوصم من الناحية الأخلاقية بأنه مذنب ، ولا من الناحية الفلسفية بأنه مخطىء ، حتى ولو كانت مادة فنه أخلاقا هابطة ، فهو — كفنان — لا يعمل ولا يفكر ، ولكنه يعبر ... إن فنا يتعلق بالأخلاق أو اللذة أو المنفعة ، هو أخلاق أو لذة أو منفعة ولن يكون فنا أبدا ! ! ... ولئن كانت الإرادة قوام الإنسان الخير فهى ليست قوام الإنسان الفنان ؛ ومتى كان الفن غير ناشىء عن الإرادة فهو فى حل كذلك من كل تمييز أخلاق . إنك لا تستطيع أن تحكم بأن فرانسكا دوانتى منافية الأخلاق ، ولا أن جوردلياشكسبير أخلاقية ، وما هما إلا لحنان من روحى دوانتى وشكسبير ليس لهما إلا وظيفة فنية ، إلا إذا استطعت أن تحكم على الربع بأنه أخلاق وعلى المثلث بأنه لا أخلاق ! ... إن من تفرعات المذهب الأخلاقى قولهم إن غاية الفن أن يوجه الناس نحو الخير ؛ ويبث فيهم كره الشر ، ويصلح من عاداتهم ، ويقوم من أخلاقهم ، وإن على الفنانين أن يساهموا فى تربية الجماهير وتقوية الروح القومى أو الحزبى فى الشعب ، أو إذاعة المثل الأعلى الذى يفرض على المرء أن يحيا حياة بسيطة جاهدة وما إلى ذلك ، والحق أن هذه أمور لا يستطيع الفن أن يقوم بها أكثر مما تستطيع الهندسة أن تفعل ، فهل عجز الهندسة هذا يجردها من حقها فى الاحترام ؟ فليت شعرى لم يريدون إذن أن يجردوا الفن من مثل هذا الحق فى مثل هذه الحال » ؟ !

هذا الرأى للفيلسوف الإيطالى المعاصر بندتو كروتشه فى نقد المذهب الأخلاق فى الفن ، وهو رأى نؤمن به كل الإيمان ويؤمن به كل محيط يقيم الشعر كما يفهمها الشاعر الفنان . ولقد رأينا أن ننقل هذا الرأى لأننا نعلم أن أناسا سيعترضون على هذا اللون من الشعر ، لأنهم يخلطون بين رسالة الفن ورسالة علم الأخلاق . أو لأنهم يطلبون إلى الشاعر أن يكف ريشته عن تصوير أثر الغريزة الإنسانية ، ناسين أنها نداء خالد يلبيه الأحياء منذ الأبد لتبقى الحياة ، ويهتف به الفنانون على مدار الحقب ليبعثوا الروح فى كل فن جميل !

أليس الفنان مطالبا بأن يمد عينيه ليرقب ، وأن يرهف أذنيه ليسمع ، وأن يهيىء نفسه وحسه ليسجل ؟ هكذا كان على طه فى كثير من شعره ، وكذلك هو فى « الحية الخالدة » ... إنه لم يزد على أن جرب الحياة فأحس عمق التجربة ، وأصغى إلى نداءها العميق فعاش فى أعماق النداء ، ورصد أدق خفقة من خفقات قلبها الكبير فأحسن الرصد ، وسجل هذا كله تسجيلا يتميز بالصدق والحرارة فى مثل هذا الأداء :

ولفت ذراعين كالحيتين ... على وبى نشوة لم تطر
وقد قربت فمها من فمى ... كشقين من قبس مستعر
أشم بأنفاسها رغبة ... ويهتف بى جفنها المنكسر
تبينت فى صدرها مصرعى ... وآخرة العاشق المنتحر ! !

هنا مزاج فنى يشرف على انتفاضة الذهن والحس والشعور ، ويخلع أثوابه الدقيقة على هياكل الكلمات ، ويسلط أضواءه الكاشفة على مسارب الغريزة ومشاهد التجربة ، وهى لحظة تمر بكل إنسان فهم المرأة حق الفهم ، وعشق الفن كل العشق ، واتخذ من الجسد سلمه إلى استكناه الطبيعة الأنثوية . وعلى درجات هذا السلم تنتقل ملكة المزاج الفنى مخلفة آثار أقدامها على كل درجة ، تاركة معالم الخطى فى كل دورة من دورات الصعود ونحصى تلك الدرجات التمهيدية فإذا هى أربع تتفق معها فى العدد تلك الخطى الفنية : الدرجة الأولى « ولفت ذراعين كالحيتين » والدرجة الثانية « وقربت فمها من فمى »، والدرجة الثالثة « أشم بأنفاسها رغبة » والدرجة الرابعة « تبينت فى صدرها مصرعى » . أما تلك الخطى الفنية التى تقودها ملكة المزاج الفنى فهى تلك المقابلة الحسية بين حركتى الالتفاف فى البيت الأول : التفاف الذراعين الأنثويتين حول الرجل فى لحظة من لحظات الغريزة الإنسانية الخالدة ، والتفاف الحيتين الرقطاوين حول الفريسة فى لحظة من لحظات الغريزة الوحشية الفاتكة . ثم تلك المقابلة النفسية بين حركتى التقبيل فى البيت الذى يليه ، حين يبلغ تصوير اللظى المتوهج

على أطراف الشفاه مبلغ القبس المتأجج فى النار المشتهاة . ثم تلك الانطباعة التجسيدية فى البيت الثالث ، حين يستحيل الدعاء المتوثب بين الجوانح إلى رغبة تشم فى الأنفاس ، وحين ينقلب النداء المتوقد بين الحنايا إلى هتاف يصرخ تحت انكسار الجفون . ثم تلك اللمعة التخيلية فى البيت الرابع ، حين يصبح الصدر الفاتن فراشا مهيأ لاحتضار الأشواق ، أو طريقا ممهدا لانتحار العشاق ! ترى هل هى فورة من فورات الحب ؟ كلا ! بل هى صرخة من صرخات الجسد . وإذا بنا نعود مرة أخرى إلى جو تلك الواقعة التى حدثناك عنها فى أحد الفصول الماضية ؛ هى هناك فى « أتوابها النفسية » التى تنظمها ملكة الوعى الشعرى ، وهى هنا فى « أتوابها الحسية » التى تصنعها ملكة المزاج الفنى ، ونرجو أن تلاحظ هذه التفرقة الدقيقة بين عمل الملكات الشعرية فى كل مرحلة من مراحل هذه الدراسة :

هو الحب ؟ لا ، بل نداء الحياة تلبيه أجسادنا الظامئة
يخف دمي لصداه الحبيب وتدفعنى القدرة الهازئة

وتطالعك بعد ذلك « عملية إحصاء » حسية ما تزال تعمل فى حدود الدورة الأولى من دورات الصعود ، على نفس السلم الجسدى الأول الذى ترتقى درجاته ملكة المزاج الفنى لتشرف فى النهاية على هدفها الأصيل ... ومن هذا الإحصاء ذلك « الجسد العارى الذى تضج به الشهوة الجائعة » ، ثم هاتان « الحدقتان اللتان تؤجان بالنظرة الرائعة » ، ثم هاتان « الشفتان اللتان ترفان بالقبلة الخادعة » . وتنتهى إلى ذلك الهدف الأصيل الذى تلتمسه ملكة المزاج الفنى ، فإذا هو تلك النتيجة الأخيرة لعملية الإحصاء الحسية مسجلة فى هذه اللمحة الجامعة :

تساقطنى ثمرا ! ما أرى ؟ أرى حية الجنة الضائعة !

وينقلنا الشاعر إلى الدورة الثانية من دورات الصعود ، حين يخاطب المرأة ذلك الخطاب المتفاعل فى فجاج الواقع الملموس ودروب الحقيقة الخالدة ... ولقد كنا فى الدورة الأولى أمام متحف يموج « بالمعروضات الجسدية » فإذا نحن فى الدورة الثانية أمام متحف آخر يموج « بالحقائق النفسية » وهى معروضات وحقائق أشبه « بمحاليل » تجمعت وتفاعلت داخل تجربة كبرى فى « معمل الحياة » ، ثم انتهت إلى هذا المزيج الأخير الذى يقدمه لنا « معمل الفن » فى هذه الأبيات :

تمثلت شتى جسوم ركم تجددت فى صور بائدة
نعم أنت هن ... نعم ما أرى أرى الكل فى امرأة واحدة
لقد فنيت فيك أرواحهن وها أنت أيتها الخالدة !

ومرة ثالثة يدفع بنا الشاعر إلى دورة جديدة من دورات الصعود ، وهى الدورة الرئيسية التى تتوسط السلم بين الدرجات التمهيدية والدرجات النهائية ... ويأبى المزاج الفنى إلا أن يرج بك على عقدة « الانسياب القصصى » فى فن الشعر ، حين يقف بك وقفة قصيرة بين المقدمات الحسية والنتائج النفسية ، بغية توكيد الصلة الرابطة بين هذه وتلك ! أما عقدة الانسياب القصصى فتبدأ بهذا البيت الذى يمثل فورة الصراع :

لقد كنت وحى رخام يصاغ فأصبحت لحما يثير الدماء !

وتنتهى بهذا البيت الذى يصور حسرة الضياع :

فأصبحت شيئا ككل الرجال وأصبحت شيئا ككل النساء !

ويستمر هذا الانسياب فيما يلى ذلك من أبيات ، حيث يتردد صداه فى تلك الكلمة الموجزة التى قدم بها الشاعر للقصيدة ، والتى أشار فيها إلى انهيار « روحية » الفن أمام « مادية الجسد » أو أمام هذه الحية الخالدة التى يشتهيها الفنانون رغم لدغاتها القاتلة ! ... ويسلمنا الشاعر بعد هذا الانسياب القصصى إلى الخاتمة ، خاتمة القصة التى تشرح لك نفسية فنان تردت مثله العليا فى مهاوى الغزوة العارمة ، حتى إذا أفاق على وخزات الأسى العاصف بكل خلجة من خلجات الضمير ، راح يطلب إلى الأفعى الخالدة أن تخلى بينه وبين الطريق ؛ طريقه الجديد الذى كنت فيه ألف أفعى من أفاعى الندم ! لقد تألم فنه حين عب من الخمر وتعذب شعوره حين اقترب من النار .. لقد تمثل فى حانة الشفاء واحترق فى أتون الجسد :

أخمر ونار ؟ لقد ضاق بى كيانى وأوشك أن أختنق
أرى ما أرى ؟ لهبا ؟ بل أثم رائحة الجسد المحترق ! !

(يتبع)

أنور المعداوى